# دور مصر...
# حديث هادئ مع التاريخ

## تمهيد..

# قراءة فى عمر التاريخ

"إدرس الماضى إذا كنت تريد أن تعرف المستقبل"

أبو الفلاسفة كونفوشيوس

obeikan.com

obeikan.com

مصر ومنذ بدايات عمر التاريخ لـم تكن فقط مجرد دولة ترتكز على دور.. أو أنها دولة ترتكـز على موقع.. ولكنها كانـت محور الارتكاز بين ذراعى القوة.. الدور والموقع.. وأدركت مصر ـ منذ بدايات ما قبل التاريخ ـ أن لها دور.. وبالتحديد أن هناك دورا خلقت له أو خلق لها ـ لا فرق ـ وأن لهذا الدور مـوقعا متفردا، أو أن لهذا المـوقع دورا متفردا ـ لا فرق ـ ولذلك شهـدت مصر أول تقنين فى التاريخ الإنـسانى للحدود والتخوم، ووضـع تدابير الأمن لسلامتـها، فكان لملوك مصر قـبل أربعة آلاف عام ثلاث عـشرة قلعـة لحماية الحدود الجـنوبية، وقلاع وحـصون ومواقع حراسة على الجبهة الشرقية.

وترسيم الحدود فى هذا الزمن ومع بدايات عمر التاريخ ـ كان لتأكيد سيادة مصر على أراضيها، وضمان سلامتها، وتنظيم حركة المرور بمراقبة الداخليـن والخارجين لدولـة تمتعت بالنـفوذ السيـاسى وبالمركز التـجارى والثقافى.. وفى كـل هذا كان واضحا ترسيم جغرافـية "الدور" المصرى داخليـا وخارجيا وفى مـنظومة واحدة تشـير إليهـا ـ على سبيـل المثال ـ القواعد المتقدمة للاستطلاع وحماية الأمن القومى، فكان لمصر فى أقصى الجنوب عند الشـلال الثانى والشلال الرابـع رجال يرقبون مناسـيب المياه على الصخور وإبلاغ ولى الأمر بما يرون من حـال فيضان النيل واستقرار الأحوال عند المنبع حتى يتخذ ما يضـمن الإنتاج الأكبر وتجنيب البلاد ما قد تتعـرض له من أخطار.. ومثلا حرص المصريـون ومنذ طلائع الأسرة الأولى على الـنشاط الاقتـصادى فى مجـال التعـدين واكتشـاف الذهب وزيادة الإنتـاج منه، فتـمتـعت مصر بـالرفاهيـة وتيسـرت شئون الحـياة داخليا.. هذا أولا.. ثم امتد نفوذهم خارجـيا بالذهب ثانيا.. وتحققت بفضـله المنزلة السـياسية وسلـطان القوة، وأصبـح المصريون يشـترون به

الحلفاء فى آسيا منذ عهد تحتمس الرابع.. وهى أول تجربة فى العالم لتولى الاقتصاد دور قيادة الأحداث وتوجيهها.. وهذا ما يحدث الآن بلغة القرن الحادى والعشرين وبعد أكثر من ٣٥٠٠ عاما.. أى أن الدور لا يرتكز فقط على قوة عسكرية..

.....

.....

وكما يقال.. دعونا نضبط عدسات رؤيتنا على منظور سليم وحتى نضمن لكلامنا أكبر قدر من الموضوعية والإنصاف.. فإن دور مصر ـ وباستثناء متفرد ـ يختلف تماما عن أى دور لأية دولة، فهو دور يلفت الانتباه إلى أهمية البعد التاريخى للدور.. أهمية البعد الجغرافى للدور.. أهمية البعد الحضارى للدور.. وأهمية البعد الإنسانى للدور.. وهكذا يتسع الأفق وتتضح الصورة..

وفى كل هذا.. كان دور مصر متواصلا فوق جغرافية سياسية حية ومع سنوات الهبوط والنهوض.. سنوات الضعف والارتقاء.. ولذلك فإن دور مصر ـ دون غيره ـ يضعنا أمام ثلاث حقائق:

الأولى: هى ارتكاز الدور على عبقرية "المكان" وعبقرية "الإنسان"..

والحقيقة الثانية: هى ذلك البناء الحضارى ـ كوحدة واحدة ـ لأساسيات الدور وقدراته وإمكانياته، ثم تراكم طبقات متلاصقة من حكمة التجربة وحسن التدبير وتقدير الموقف.

والحقيقة الثالثة: أن دور مصر لا يخضع لحسابات الطرح أو القسمة

أو الجمع وفقا لأحكام المستجدات وتطوراتها. ولكنه دور ارتبط منذ سنوات ما قبل التاريخ بالإنسان المصرى..

ودور مصر يرتبط بحقائق تمتد جذورها القوية فى أعماق التاريخ.. ومنذ انفرد الشعب المصرى ودون غيره من شعوب العالم القديم بالسيطرة على عالم المادة، وبنى صرحا من المدنية المادية يعجز الزمن عن محوه.. ثم جاء الانتقال المبكر من النضال مع الطبيعة، إلى النضال مع النفس، والارتقاء إلى حقيقة الأخلاق وسلطان العدل.. وهذا الارتقاء الاجتماعى المبكر مع السنوات الأولى من عمر التاريخ ارتبط بقواعد العدل والحق والمساواة وحقوق الإنسان. وساد الاعتقاد بأن جوهر الحياة هو "أنه من حق كل فرد التحلى بالأخلاق الفاضلة".. ثم كان الانتماء لفكر التوحيد الدينى أهم دعائم المجتمع المصرى لمواجهة ما يحل به من ملمات، وما يعترض طريقه من مخاطر وتحديات..

ثم نأتى للتطورات الاجتماعية داخل مصر ومع تلك البدايات المبكرة من عمر التاريخ.. دولة تعرف الكتابة والمعادن، وتسيطر عليها حكومة منظمة تنظيما ساميا، وتقوم بتشييد أضخم المنشآت المعمارية والتى لم يبن مثلها قط فى العالم القديم، ومما يدل على قدرة هذه الدولة وسيطرتها على العوامل المادية.. وهذه التطورات هى التى مهدت الأرض لحركة الدور، وأن تضع تقنينا ـ مبكرا ـ لمفهوم الدور المصرى فى ظل سلطة راسخة وإمبراطورية ناهضة أصبحت أول إمبراطورية ثابتة الأركان فى التاريخ، امتد سلطانها إلى الأقطار الأسيوية والإفريقية المجاورة.

وأعتقد أن هناك كثيرين لم يلتفتوا إلى حقيقة المفهوم الحضارى للدور المصرى.. وأعتقد ـ أيضا ـ أن هناك كثيرين لم يلتفتوا إلى أهمية البعد

التاريخى مدخلا إلى أية دراسة جادة وعميقة لهذا الدور، وبغير هذا تبدو الحقائق مبتسرة مفتعلة.. ولذلك لابد من الاقتراب من قواعد التأسيس لدولة تمثل المحور الجغرافى للتاريخ.. الاقتراب من حقائق التجانس بين عبقرية المكان وعبقرية الإنسان.. والاقتراب من هذه الملامح التى جعلت للدور المصرى خصائص تتيح له أن يستوعب اتجاه الآخرين وأن يؤثر فى محيط أبعد من حدوده الجغرافية

. . . .

ومن هنا كانت تلك الإشارات السريعة لدلالات ومعانى الارتقاء الاجتماعى المبكر للشعب المصرى.. والرؤية الشاملة لما وراء الحدود وما بعد الحياة من عالم آخر.. والارتقاء الفكرى باستشراف حقيقة الكون وخالقه ومنذ زمن كانت بقية الشعوب المتناثرة على مساحات جغرافية مبعثرة من العالم القديم تعيش على هامش البدائية الفقيرة والعشوائية.. وهى حقيقة اعترف بها الفيلسوف العظيم أفلاطون ـ والذى عاش فى مصر ثلاثة عشر عاما ـ وقال فى كتابه "القوانين": ما من على لدينا إلا وقد أخذناه عن مصر..

إذن هل يمكن إغفال هذه الأساسيات ونحن نتحدث عن المفهوم الشامل للدور ـ دور أقدم دولة فى عمر التاريخ ـ لا أعتقد.. ولكن يبدو أن كثيرين تجاهلوا أو ربما لم يدركوا أن هناك عناصر خلق لثوابت وأهداف ومبادئ ومشاعر وفكر وانتماء وإبداعات وتجارب تساهم وعلى امتداد سبعة آلاف عاما فى تحديد ملامح واستراتيجيات هذا الدور وحركته وتأثيره.

والتاريخ القديم ليس فقط منقوش على الأحجار تشهد به الآثار،

ولكنه مواريث ثقافية وحضارية سارية فى الأعماق.

لذلك قلنا أن الحديث بصفة التحديد عن دور مصر يختلف تماما عن مجمل الأدوار، وعن مواقف الدول الحديثة النشأة.. وبالنسبة لمصر فإن منطق العقل يقول إننا لا نستطيع أن نفصل بين أية محاولة لتقييم دور مصر، أو طرح التساؤلات والتوقعات بصيغة التنبؤ بمستقبل الدور وإمكانياته وحدوده وتأثيره.. وبين "قواعد التأسيس" لهذا الدور.. ومنذ أدرك المصريون بوعى غير مسبوق ـ أن عقيدة الإله هى أعظم حقيقة فى الوجود.. وأن يتضمن "قسم" ملوك مصر قبل ٤٠٠٠ عام أو أكثر تمجيد الإله: "لأنه يعرف السماء ويعرف الأرض، ويرى جميع العالم فى كل ساعة".. ثم يأتى أخناتون قبل ثلاثة آلاف سنة مسبحا لله: "أنت خلقت الأرض، خلقتها وحدك لا شريك لك، كما شئت وعلى ما أردت.. الأرض بما فيها من بشر وأنعام وسائمة، وكل ما دب فوق ظهرها على قدميه وطار فى جوها بجناحين، وجميع الأقطار من الشام وكورش وربوع مصر".. وأن يكون كتاب الموتى والذى يوصف بأنه "إنجيل المصريين الأقدمين" هو أول توثيق لقدرة الإنسان المصرى على التسامى وتوظيف العقل باتجاه الخالق.. والانتقال من النضال مع الطبيعة إلى النضال مع النفس وإخضاعها لحسابات ما بعد الموت، وتحديد ما يخص البوابات النارية التى كان يمر بها المتوفى حتى يصل إلى عالم الآخرة.. والعبور إلى الطريقين اللذين كان يسير فيهما فى سياحته.. وتصوير صيغة المحاكمة "الخلقية" فى عالم الآخرة وكيفيتها.. وقد توخى المصريون الحقيقة فى تصوير المسئولية الخلقية..

وهذه العقيدة ـ وهى من قواعد التأسيس ـ هى التى جعلت دور مصر

فاعلا ومؤثرا مع حركة الدعوة للأديان السماوية وانتشار عقيدة التوحيد.. وكان لمصر دور وموقف مع الأديان خاصة المسيحية والإسلام، وكانت مصر موئل الأديان وملاذا للإنسان.. وهذه العقيدة هى التى رسمت حدود العلاقة بين الأخلاق والسياسة ـ مبكرا ـ ولا تعارض بينهما.. وأن هناك تناسقا بين الأفكار الأخلاقية وأساليب الممارسة السياسية.. والمصريون كانت لديهم أسباب من الثقة تجعلهم مطمئنين إلى دور الأخلاق فى الحياة الاجتماعية، ولذلك أقام المصرى تاريخه كله على رفض مالا يستقيم مع خلقه، والاعتقاد بأن " الأخلاق " تأخذ صورة خاصة متميزة فى كل مجال بذاته.. فى الفن والقانون والسياسة والحياة اليومية..

. . . .

. . . .

وبعيدا عن روايات التاريخ والوقائع والأحداث على تلك المسافة الممتدة فى عمر الزمن ـ سبعة آلاف عام ـ فإن العودة إلى الماضى ليست بهدف تنشيط ذاكرة أمة، وكما يقولون فإن الماضى نفسه مفتوح، وأن تاريخ أى شعب هو المؤثر الأكبر على ضميره، وأن الأمم تتقدم حين تعرف تاريخها وتعتز بهذا التاريخ.. أو بمقدار ما يقول به أبو الفلاسفة كونفوشيوس: "إدرس الماضى إذا كنت تريد أن تعرف المستقبل".

□□□